علم الجمال والنقد الأدبي

من بين الإنجازات الهامّة التي تُسجّل لهذا العصر التطوّر الكبير الذي أصاب البحث العلمي على صعيد العلوم والآداب 0وقد أفاد النقد الأدبي إفادة غير قليلة ليس من العلاقة الفاعلة بينه وبين العلوم الإنسانية فحسب ، وإنّما من الأسس والطّرائق التي أرساها البحث العلمي 0 ولعلّه من المؤكّد أنّ البحث النقدي الذي يلتزم ، أو يفيد من تلك الأسس والطرائق لا بدّ له من أن يتميّز ، وان يحمل خصوصيّة ، ويصلَ إلى نتائج تنعكسُ معطياتها – في الأغلب – إيجاباً على النقد والمبدع والمتلقّي 0

ولعلّ الإنجاز الأهم يتمثّل في سعي النقد الأدبي إلى الإفادة من العلوم الإنسانية ، وبخاصّة علم الجمال والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم اللسانيات 0 وقد يصبح بوسع النقد – بعد اتكائه الفعّال على تلك العلوم – أن يكتشفَ القوانين العامّة التي تنظّم الأجناس الأدبية ، ليتجاوز بذلك الاستغراق في جزئيات الخطاب الأدبي الذي كان سائداً ومايزال في النقد الأدبي التقليدي 0

ويتولّى اليوم " علم الجمال " الصدارةَ من حيث الأهمية في الدراسات النقدية ، وذلك من خلال قدرته على التغلغل في ثنايا الخطاب الإبداعي وتقويمه ، واكتشاف القوانين العامّة للظاهرة الأدبية 0

ويمكن القول : إنّ الذي يميّز ناقداً من ناقد آخر ، أو دراسة نقدية من أخرى هو اتكاءُ إحداهما على معطيات " علم الجمال " دون الأخرى 0

إنّ الهدف الأساسي لعلم الجمال هو دراسةُ السّلوك الإنساني عبر الممارستين الاجتماعية والفنية 0 وهو – في الفن ومن ضمنه الأدب – يتناول مسألتين أساسيتين؛ تتمثّل الأولى في البحث عن (القيم الجمالية): الجميل والقبيح والتراجيدي والكوميدي والجليل والبطولي والسامي والرفيع ، وتحديد ملامحها ومساحتها في الخطاب الإبداعي، وعلاقتها فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين القيم السّائدة في تلك الفترة من جهة أخرى ، وتتمثّل المسألة الثانية في دراسة علم الجمال (لجمالية الشكل الفنّي) والقوانين التي تحكمه ، ومدى قدرته ؛ أي قدرة هذا الشكل على تجسيد القيم الجمالية ، وتمثّلها 0

وعلم الجمال — عن طريق دراسته لهذه المسألة — يستطيع أن يحدّد مستوى الإبداع في النص؛ أي يكون قادراً على إطلاق حكم قيمة ، لأنّه يدرس مدى تحوّل " المفاهيم الجمالية " إلى " قيم جمالية " داخل النص الإبداعي 0 فالمفهوم يظلُّ مفهوماً مادام خارج إطار الإبداع ؛ أي خارج إطار الذاتي في النص ، وحين يدخل المفهومُ إلى النص الإبداعي يصبح قيمةً بعد خضوعه لذات المبدع ، وتشكّله ضمن الصورة الفنية الحيّة 0

وبوسع علم الجمال – عبر دراسته للقيم الجمالية، ولجمالية الشكل الفني – أن يفتح حواراً مع العلوم الإنسانية، والمناهج النقدية الأخرى كافة دون استثناء؛ فهو — أي النقد الأدبي — يحتاج إلى إنجازات " علم النفس " و " المنهج النفسي " لاستبطان الجميل والقبيح في النص، وكذلك للبحث عن الأسباب التي كانت وراء تكوّن التراجيدي في النص، وغياب الكوميدي مثلاً، إلى جانب أنه يحتاج إلى ذلك للإجابة عمّا جعلَ الجميلَ جميلاً،

والقبيح قبيحاً ، والتراجيدي دائم الحضور ، أو الانطواء . وهو يحتاج إلى " مبادئ البنيوية " للإجابة عن أسئلة كثيرة تُثيرها بنيةُ النص من خلال البحث عن الأسس التي ترتكز عليها جمالية الشكل الفني ، عبر الثنائي والمتضاد والمتقابل بأشكاله المختلفة ضمن البُنى الفنية المتجاورة في النص .

ويمكن لعلم الجمال أن يفيد من فلسفة " التناص أو التفكيك " ليساعد ذلك على معرفة النصوص التي دخلت في علاقة تناص مع النص الذي يدرسه ، ومستوى ذلك التناص ، كما يقدّم التناص إلى " علم الجمال " ما هو أكثر من ذلك من خلال البحث في قدرة النص المدروس على صهر النصوص الأخرى فيه ، وجعلها متوحدة في عناصره ، أو بقائها كما هي . وهو في هذا يساهم في الحكم على مستوى إبداع النص ، ومن ثمّ جماليته .

وعلم الجمال يحتاج أيضاً إلى إنجازات " علم اللّسانيات " عبر دراسته للتلافيف المعقدة التي تخضع لها المفردة بعد دخولها إلى النص ، ورحلتها الطويلة عبر الحركة والصوت و بنية النص .

وهو يحتاج إلى " المنهج الواقعي " لربط القيم الجمالية في النص بالظرف التاريخي والاجتماعي الذي وُلدت فيه ، أي يساعده على بلورة القيم الجمالية والإحاطة بأبعادها المختلفة ، وربطها بالمثُل الجمالية السائدة في الفترة التي أنتجت النص .

ويمكن لعلم الجمال أن يفيد من علم التاريخ والاجتماع والفلسفة ، وفلسفة الفن ، ونظرية الفن ، ونظرية الأدب ، وعلم الأدب ، وغير ذلك من العلوم الأخرى في دراسته للخطاب الإبداعي، أو الظاهرة الإبداعية بشكل عام .

ما نريد أن نقوله هنا : إنّ " علم الجمال " من أكثر العلوم الإنسانية قابلية للحوار ، وأكثرها مرونة وانفتاحاً على العلوم الإنسانية ، والمناهج النقدية 0 لذلك فهو أكثرها تأثيراً في النقد الأدبي ، وعلى النقد – من هذا المنطلق – أن يُشرِعَ كافة الأبواب باتجاهه .

فالنقد الأدبي الذي يفيد من علم الجمال يرتفع مستواه العلمي ، وتتضح لدى الناقد الرؤية بشكل مميز ، ويستطيع أن يطرح مشروعه النقدي عبر الرؤيا .

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك من يظن أن المسافة بين النقد وعلم الجمال واسعة باعتبار أن النقد الأدبي يتناول جزئيات الخطاب الإبداعي ويستغرق في تفاصيل دقيقة لها علاقة بالمفردة والتركيب والصورة والصوت والإيقاع ، وما إلى ذلك ، بينما يهتم علم الجمال بالقوانين العامة للخطاب .ونحن نرى أنهما متكاملان ،وكلٌّ منهما بحاجة إلى الآخر لخدمة الإبداع الأدبي بأشكاله المختلفة . وحبذا لو تمّت الإفادة من معطياته في قراءة النصوص في جامعاتنا .

إن مستوى "الوعي الجمالي " في مرحلة من المراحل يمكن أن يتحدد من خلال قدرته على التمييز بين "المفاهيم الجمالية" و"القيم الجمالية" في الفن والحياة . وهذا الوعي هو مصدر تحديد القيم الجمالية 0 ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تحديد علماء الجمال لتلك القيم ساهم مساهمةً كبيرة في تصحيح كثير من مقولات النقد ، ووعي المبدعين 0

ولعلّنا لا نخطئ إذا زعمنا أنّ تلك المعطيات المذكورة لو توفّرت للناقد ، أوللنقد الأدبي أو لمن يمارس تدريس النصوص في جامعاتنا ، فحتماً سيصل إلى نتائج أكثر دقّة وعمقاً وإحاطة، ووضوحاً في مواجهته للخطاب الإبداعي 0

لكنّ الإنجاز الأهم " لعلم الجمال " يتمثّل في اكتشافه للمَثَل الجمالي 0 ونظنّ أنّ معرفة " المثَل الجمالي " بالنسبة للناقد معرفة جيدة تفتح آفاقاً خصبة لدراسة النص الإبداعي ، أو الظاهرة الإبداعية .

عبد الله خلف العساف

دراسات جمالية نصية في الشعر السعودي الجديد

(ممارسة في النقد التطبيقي)

http://skoubia.blogspot.com/

تاريخ الولوج 22 أكتوبر 2019